تعقيب أخير حول هامش علال الفاسي «المحذوف» من كتاب (ملحمة عبد الخالق الطريس):

الألقاب العلمية لا تصنع باحثا متميزا ولا تعلي من شأن أستاذ خامل مغمور والموضوعية سمة الناقد الجاد

يتعمد الناقد إبراز ما يعتبره خطأ حتى ولو كان السياق لا يوحي بذلك فليت شعري أناقد هو ام ناقض؟

د. محمد الشريف*

■ يحكى عن الإمام أبي حنيفة، أنه جاءه شخص وجلس في المجلس وله هيئة وهيبة، وكان الإمام أبو حنيفة يتكلم عن مسألة فطر الصائم عند غروب الشمس، فقال ذلك الرجل: يا شيخ: إذا تأخر غروب الشمس إلى نصف الليل ماذا نفعل؟ وقد كان أبو حنيفة يأنف من مدّ رجليه احتراماً لهذا الرجل ذي الهيبة، فلما سمع منه هذا الكلام الذي ينبئ عن شخصية هذا الرجل، قال: (آن لأبي حنيفة أن يمد رجليه).

تذكرت هذه الحكاية بعد انتهائي من مطالعة مقال السيد عبد القادر الإدريسي المنشور مؤخرا بجريدة العلم (19 تموز/ يوليو 2006 صفحة مدارات) والذي خصصه لاستعراض الأخطاء التي شابت ترجمتنا لكتاب «ملحمة عبد الخالق الطريس» الصادر سنة 2003 ضمن منشورات جمعية تطاون أسمير، في 383 صفحة من القطع الكبير.

وقبل الخوض في تفاصيل المقال المذكور ومضمراته، وجب التنبيه على قضية منهجية مرتبطة بماهية العمل الترجمي ذاته. يعتقد السيد الإدريسي أن المطلوب من المترجم هو التحشية والتعليق على ما يورده المؤلف من معطيات، وتصحيح أخطائه، والتعريف بأعلامه... إلخ. وهذا الأمر فيه نظر. فالترجمة ليست علم تحقيق النصوص. ولو كنا نذهب مذهب الناقد، لكنا أضفنا إلى عبارة : «نقله إلى العربية» المثبتة على غلاف الكتاب، عبارة «وصححه وعلق عليه»، أو غيرها من عبارات تفيد التحقيق والشرح والضبط. إننا ـ حسبما هو مثبت في مقدمة الكتاب – لم نجعل من تصحيح أخطاء المؤلف غايتنا، على الرغم من أننا صوبنا العشرات منها، لم يشر إليها الناقد قط. فلو تتبعنا جميع هفوات المؤلف لوجدناها تند عن الحصر، ولو علقنا على معلوماته ومعطياته التاريخية لاحتاج الأمر إلى مجلد آخر. وهنا لا بد من فتح قوسين للتأكيد على أننا لا نتبنى تقييم السيد الإدريسي لمؤلف (جان وولف) حينما يصفه بـ «الواسع الاطلاع، المتعدد المصادر، المحيط إحاطة شاملة (تقريبا) بحياة الأستاذ الطريس». لقد أحجمتُ في مقدمتي للترجمة عن إطلاق مثل هذه الأحكام والتقييمات المتسرعة، على الرغم من أن العادة جرت بأن يقرظ كل مترجم ما يقوم بترجمته. فمن باب الموضوعية والأمانة العلمية أن نرد الفضل لأهله. فما سطره الكاتب والصحافي البلجيكي (جان وولف) بخصوص عبد الخالق الطريس وتاريخ الحركة الوطنية في الشمال، هو في مجمله صياغة باللغة الفرنسية لاجتهادات وطروحات المؤرخ المغربي محمد ابن عزوز حكيم، واقتباسات من مؤلفاته. وهذا الأمر يبدو واضحا، لو تمعّن السيد الإدريسي في الهوامش التي وثّقْنا بها ما ورد من معلومات في كتاب «ملحمة الطريس» وأرجعناها إلى أصولها.

اين هي «الهوامش الفضفاضة»؟

ومن اللافت للانتباه أن الناقد لم يقدم لنا أية أمثلة عن «الهوامش الفضفاضة» التي أكد على وجودها سابقا، إلا أنه استعاض عنها بالتوقف مطولا عند هامش خصصه (جان وولف) للزعيم علال الفاسي، محيلا للمرة الأولى ـ والأخيرة ـ على النص الفرنسي للكتاب، متهما إيانا بـ «حذف» هذا الهامش بطريقة متعمدة. وراح يبحث عن الأسباب التي قد تكون كامنة وراء هذا «الحذف»، ليخلص إلى القول، وبكثير من الإصرار والوثوقية، بأن (حذف الهامش الخاص بعلال الفاسي قد تم عن قصد وسبق إصرار من المترجم، أو بإيعاز من غيره). وبطبيعة الحال لم يفته القول ـ وبتشنج واضح ـ بأن (هذا الصنيع أشنع من الخيانة)، متهما المترجم والمراجع بمخالفة (الأمانة والنزاهة العلمية)، ملمحا إلى أن يكون للأمر خلفية سياسية أو إيديولوجية مبيتة. أما إذا تساءلنا عن الدلائل أو القرائن التي استند عليها الناقد في هذا الاتهام الباطل ـ الذي أبى إلا أن يبرزه حتى في عنوان مقاله ـ فإننا لن نعثر على أي دليل، اللهم إلا رجمه بالغيب، أو قدرته الخارقة على الاطلاع على سرائر الناس وطويتهم الباطنة! والغريب أن الناقد الذي أصر على استعمال فعل (حذف) دون سواه، خمس مرات، لم يجل بخالده قط أن يكون هذا الهامش قد سقط سهوا (وهذه هي الحقيقة المؤكدة)، وأن الأمر لا علاقة له بأي (هوى)، أو اعتبارات أخرى، كما يوحي بذلك الناقد. إن مكانة الزعيم علال الفاسي في تاريخ المغرب لن يضرها في شيء سقوط هامش يتيم يخصها من كتاب، ولا تحتاج لمن يدافع عنها من الكتبة والصحفيين. وعلى أي حال أعتبر التنبيه على سقوط هذا الهامش من إيجابيات نقد السيد الإدريسي، وأحد الأمور التي له فضل السبق في التنبيه عليها، إن كان هو من طالع النص الفرنسي للكتاب وقارنه بالترجمة العربية. وأطمئنه بأن هذا الهامش سيجد مكانه في الطبعة الثانية للكتاب.

أما إذا فحصنا جزئيات مقال الناقد، وتساءلنا عن محصلته النهائية، فماذا نجد؟

مؤاخذتنا على عدم تصحيح خطأين (الأول بخصوص مدة ولاية الطيب بنونة على إقليم تطوان، والثاني متعلق بتاريخ الصحافة التطوانية)، وتصويب أسماء ثلاثة أعلام مشرقية، والتنبيه على ما اعتبره أخطاء لغوية. في حين لم يجد الناقد ما ينتقد علينا بخصوص صحة الترجمة وسلامتها. فلم يتهمنا، والحمد لله، بتحريف معاني النص الأصلي للكتاب أو مقاصد المؤلف، أو غير ذلك، مما تتطلبه المراجعة النقدية لأي عمل ترجمي. ونحن نعترف أن ثمة هفوة تسربت إلى ترجمتنا، وأدت إلى ما اعتبره الناقد أخطاء تاريخية لا تغتفر، كما سنبينه لاحقا.

وتمشيا مع ما طرحه الناقد، سوف نقسم تعقيبنا إلى ثلاثة محاور، هي:

ـ أولا: ما اعتبره تصحيفا في أسماء الأعلام.
ـ ثانيا: ما زعم أنه أخطاء تاريخية.
ـ ثالثا: ما اعتقد أنه أخطاء لغوية.

ليس تصحيفا وانما طرائق

أولا ـ كنت أعتقد أن التصحيف قد طال أسماء أعلام مغربية أو غربية على علاقة وطيدة بتاريخ عبد الخالق الطريس وبموضوع الكتاب، فإذا بها ثلاثة شخصيات مشرقية هامشية (من بينها صحافيان هما : إدجار جلاد، وأسعد داغر)، ورد ذكرها عرضا في الكتاب، ضمن مئات الشخصيات الأخرى. وسبق أن أشار إلى ذلك التصحيف عدد من الأساتذة النقاد في لقاءات علمية خصصت لمناقشة كتاب «ملحمة الطريس» حين صدوره أواخر سنة 2003، ولم يكن السيد الإدريسي السباق إلى التنبيه عليها؛ مع فارق جوهري، هو أن مجمل أولئك النقاد اعتبروا الأمر مجرد هفوات لا يخلو منها أي كتاب، في حين أضفى السيد الإدريسي على تنبيهه هالة من التهويل والمبالغة، حتى ليخال للمرء أن الكتاب طافح بالمعلومات «المغلوطة» و «المتضاربة» و «الباطلة» و «الفادحة» وغيرها من الأوصاف التي لم يأل الناقد جهدا في التشديد عليها. فأين نحن من صيغ المبالغة التي يتبناها الناقد؟ وما هي هذه الأخطاء التاريخية التي يعتقد أنه الوحيد الذي ضبطها متسربة إلى كتاب ملحمة الطريس، ولم ينتبه إليها المؤلف، وغفل عنها المترجم، ولم يصححها المُراجع؟

قبل الإجابة يتعين علينا الإقرار بأن الناقد غالبا ما يُخطّىء المؤلفَ والمترجمَ في قضايا مضبوطة تاريخيا. يتهمنا مثلا بتحريف الأسماء (لعدم معرفتنا بها)، و (لنقلنا الأسماء من الفرنسية إلى العربية كما كتبها المؤلف). ويعطي مثالا على ذلك

اسم القائد العسكري (وليس الزعيم) الفلسطيني القاوقجي الذي حرفناه ـ في زعمه ـ إلى القوقجي. وقد فات الناقد أن إسم القائد العسكري الفلسطيني المشار إليه يُضبط بالصيغتيْن. ولا يتسع المجال هنا لنحيله على بعض الدراسات حول هذه الشخصية، وحسبنا أن نشير عليه بالبحث عن «فوزي القوقجي» في الشبكة العنكبوتية ليتأكد من أن ورود اسمه بهذه الصيغة هو أكثر من وروده بالصيغة التي يعتقد أنها الصحيحة. ونفس الشيء يقال عن (رشيد عالي الكيلاني)، الذي يرد اسمه في أكثر من مصدر ودراسة كما يلي : (رشيد علي الكيلاني) وبإمكانه التأكد من ذلك بالرجوع إلى لائحة «رؤساء الوزارة في العراق»، وبالضبط سنة 1940 ـ 1941.

* إن الهفوة التي تسربت إلى ترجمتنا، والتي أشرنا إليها أعلاه، متعلقة بالأمير عبد الإله الوصي على العرش العراقي، فالمؤلف جان وولف يتحدث بالفعل عن الوصي على العرش (ص 226 من النص الفرنسي) لا عن (الملك عبد الله)، ولو تريث الناقد ورجع إلى الفقرة الرابعة من ص 315 (من الترجمة) لزال عجبه، ولما اتهم المؤلف بالخطأ. كما أن المعلومات التي تفضل بها عن ذات الأمير توجد في الصفحة ذاتها، مثلها في ذلك مثل الإفادات التي ساقها عن الصحفي ادجار جلاد، وهي مثبتة في الهامش 400 من صفحة 304 من الترجمة.

ثانيا ـ نبادر إلى القول بأن ثمة أخطاء مطبعية تسربت كذلك إلى ترجمتنا، إلا أن الناقد اعتبرها أخطاء فادحة للمترجم والمراجع والمؤلف، ونستدل على ذلك بالأمثلة التالية:

* التعليق الذي ورد تحت صورة تجمع بين عبد الخالق الطريس والمكي الناصري وفيه أن هذا الأخير توفي في 10 ايار (مايو) 1944، وهذا ما اعتبره «خطأ فادحا في المعلومات» ! بينما الأمر لا يعدو أن يكون خطأ مطبعيا واضحا لا يخفى على أي قارىء، فبالأحرى على الباحثين، ويمكن التثبت منه بالرجوع إلى الأصل الفرنسي للكتاب (ص 195) حيث سنة وفاته هي 1994.

الهوس في البحث عن العيوب

* يتعمد الناقد إبراز ما يعتبره خطأ حتى ولو كان السياق لا يوحي بذلك، منتشلا الأمثلة التي يوردها من إطارها العام. مثلا يقول: (ولم يذكر المؤلف ـ ومر على ذلك المترجم أيضا ـ في الصفحة 226 اسم لبنان ضمن الدول المؤسسة لجامعة الدول العربية في 22 اذار/مارس) 1945). وهنا أثبت بالحرف ما ورد في الترجمة للتأكيد على أن الأمر لا يعدو أن يكون سقطا، وليس خطأ أو إغفالا مقصودا: (كانت الجامعة الفتية تضم سبعة أعضاء (مصر والعربية السعودية والعراق واليمن والأردن وسورية). فواضح أن الدول المثبتة أسماؤها في النص هي ست دول، وأن لبنان سقط سهوا، وهو مثبت في النص الفرنسي للكتاب (ص 235)، فلو رجع الناقد إلى النص الفرنسي لتجنب إصدار مثل هذا الحكم المتسرع والمجافي للحقيقة حتى في حق المؤلف جان وولف الذي يشيد به أيما إشادة. فهل تخفى مثل هذه الأخطاء المطبعية الواضحة وضوح الشمس على أي قارىء لبيب؟ أم ان الناقد يتعمد التهويل منها لغرض هو أعلم به؟

* ويتهم الناقدُ المؤلفَ والمترجمَ بتحريف اسم «الحزب القومي السوري» إلى «الحزب الشعبي السوري». وهنا وجب توضيح مسألتين. أولا: أنه لم يكن بسورية شيء اسمه «الحزب القومي السوري» وانما هو (الحزب السوري القومي الاجتماعي). ثانيا: لقد فات الناقد أن الترجمة التي اعتمدها الفرنسيون للحزب السوري القومي الاجتماعي كانت ترجمة P. P. S آي (الحزب الشعبي السوري)، وهي الصيغة التي تبناها جان وولف. وعلى غرار هذه التسمية نشأت في فرنسا نفسها أي الحركة الشعبية الفرنسية التي M. P. F ترأسها (دي غول). وهنا أبيح لنفسي إحالة الناقد على المحاضرة السابعة من أدبيات الحزب التي ألقيت يوم الأحد 7 آذار (مارس) 1948 والموجودة بالموقع الرسمي للحزب السوري القومي الاجتماعي ليتأكد من تسرعه في اتهامنا com.www.ssnp بتحريف الأسماء.

* ومما يؤاخذه الناقد على المؤلف وعلينا، وصف شكيب أرسلان بالسوري، وبأننا لم ننبه على أصله اللبناني. أما نعته بالسوري، كما يفعل جان وولف وغيره من المؤرخين الفرنسيين، فجائز للأسباب التي أوردها الناقد بنفسه (أي دلالة مصطلح سوريا الذي كان يتضمن لبنان آنذاك)، أما أصله اللبناني فقد أعفانا من التنبيه عليه المؤلف نفسه حينما يخبرنا في ص 154 بأنه ينتمي إلى «أسرة أرستوقراطية درزية». والأكيد أنه يقصد دروز لبنان لا دروز سورية.

* هذا ويقّولُنا الناقد ما لم نقلْه ولا قاله مؤلف الكتاب. ومثال ذلك حديثه عن ديوان نسبناه إلى الشاعر محمد إقبال. وبالرجوع إلى ص 153 التي يحيل عليها لا نجد ذكرا لشيء اسمه ديوان!

ليست اخطاء نحوية

ثالثا ـ يذكرنا الناقد كذلك بأبجديات القواعد النحوية المتعلقة بالأسماء الخمسة وكيف أن «أب» في حالة الرفع تكتب «أبو» وفي حالة الكسر «أبي»، ونسي أن يذكرنا كيف تكتب في حالة النصب! فيا له من تذكير سيبويهي (نسبة إلى سيبويه) يستحق التنويه! وكان التنبيه مدخلا للناقد ليعيب علينا تكرار (الخطأ الذي نشر في عنوان كتاب الأستاذ المؤرخ محمد عزوز حكيم عن عبد السلام بنونة وهو (أب الحركة الوطنية)». وهذا ينم عن جهل الناقد بالضوابط الأكاديمية في مجال البيبليوغرافية، والتي تقتضي إيراد العنوان كما هو مثبت على غلاف الكتاب، دون تغيير أو تحوير أو تصحيح، حتى ولو كان به خطأ. فهل نتخلى عن هذه الضوابط العلمية والأكاديمية لنأخذ بدعوة الناقد؟ أم المقصود بالإشارة هو إبراز الخطأ في عنوان كتاب الأستاذ بن عزوز، ليس إلا؟ فليت شعري، أناقدٌ هو أم ناقض؟

ثم ان تخطئة ابن عزوز في الأمر ينمّ عن جهل فاحش باللغة العربية. ذلك أن الرجل جرى على لغة عربية فصيحة نادرة، ولم يجر على المشهور، ولا يخطئه إلا جاهل بسعة العربية. قال ابن عقيل في شرح الألفية، باب المعرب والمبني : «وحاصل ما ذكره أن في «أب، وأخ، وحم» ثلاث لغات : أشهرها أن تكون بالواو والألف والياء، والثانية أن تكون بالألف مطلقا، والثالثة أن يُحذف منها الأحرف الثلاثة، وهذا نادر» (ج 1، ص 52). وعليه قول الشاعر:

بأبهْ افتدى عديٌّ في الكرمْ // ومن يشابه أبَهْ فما ظلمْ.

فلم يخطىء ابن عزوز في عنوان كتابه إطلاقا، ولا من نقل عنه، ولا من راجع الكتاب. وهذا يعرفه حتى من لا اطلاع لهم على القواعد النحوية، لكن:

لقد هزُلت حتى بدا من هزالها كُلاها // وحتى سامها كلّ مفلس

أما الأمور الأخرى التي زعم أنها أخطاء لغوية، فنجملها كما يلي:

ـ جاء معلنا بالتوبة : قال في القاموس : وأعلنتُه، وبه، وعلنته: أظهرته. فالفعل متعد بنفسه وبالباء. ومن باب الإفادة تذكير الناقد بعنوان كتاب الإمام السخاوي، المتوفى عام 902 هـ : (الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ).

ـ اطلاع تام بما جرى : يزعم الناقد أن (الاطلاع يكون على الشيء لا بالشيء)، وهذا جهل باللغة العربية. قال ابن هشام عن معنى «على» : (السابع : موافقة الباء، نحو «حقيق علي أن لا أقول. وقرأ أُبيٌ بالباء. وقالوا : اركب على اسم الله (المغني، ج1، ص 192). فحرف الجر على، يوافق حرف الباء، بلا مشقة ولا نكد ولا تضييق من أهل اللغة. وقد استشهد ابن هشام بآية كريمة فـ «اطلاع تام بما جرى»، توافق «اطلاع تام على ما جرى» بدليل الآية، وكلام ابن هشام. وكذلك من معاني الباء المفردة الاستعلاء، ومنه قوله تعالى : (من إن تأمنه بقنطار)، أي على قنطار. وقول الشاعر:

أرب يبولُ الثعلبان برأسه // لقد هان من بالت عليه الثعالب (راجع المغني، ج 1، ص 142، في فصل حرف الباء).

فثبت إذن أن قول المترجم : (اطلاع تام بما جرى)، جملة عربية فصيحة، معناها اطلاع تام على ما جرى.

ـ فرحة عارمة لمليون من : قياس على ألفٍ من. فأين الخطأ؟

ـ لم تكن قريحته تخطىء : أين الخطأ؟

ـ انمحاؤه السياسي : أين الخطأ؟

والحاصل أن ما خطّأنا فيه الناقد راجع إلى أحد أمرين: إما إلى غلبة اللغة الصحافية على السيد الإدريسي أو جهله الفاحش بلغة العرب. وإما إلى ما سقط عند رقن الكتاب، وزاغ عنه البصر، والكمال لله، (مثل : ولكن ما كان ثمن؟ : سقط الألف واللام. بصفته سلطان : زاغ عنه البصر، فسقطت الألف) والدليل الثابت على أن الأمر لا يعدو أن يكون سقطا هو أن عبارة (كان له صدى كبير) قد تكررت في الكتاب سبع مرات (ص 97، 174، 214، 260، 285، 304 هامش 400) ولم يتسرب الألف ـ سهوا ـ إلا مرة واحدة إليها (صدى كبيرا)، هي التي أوردها الناقد.

وبعد...

وبعد، فإنه يصعب علينا فهم العلاقة بين التواضع العلمي والألقاب العلمية التي تمنحها الشهادات الأكاديمية. إني على اقتناع تام بأن الألقاب العلمية لا تصنع باحثا متميزا ولا تعلي من شأن أستاذ خامل مغمور، ولكني لا أستسيغ أن يصادر حق من حقوق الأساتذة، أو يعاب عليهم إطلاقهم على نفسهم ألقابا علمية تخولها إياهم شهاداتهم الجامعية، حقا لا انتحالا. وشخصيا لا تشكل الشهادة الأكاديمية أية عقدة لي، وقد يقع أن أثبت الألقاب التي تخولها لي (كما هو الحال بالنسبة لكتاب ملحمة عبد الخالق الطريس)، كما قد أثبت إسمي مجردا من الألقاب العلمية (كما هو الحال في بعض مؤلفاتي الأخرى). وبما أن الناقد على دراية كبيرة بالمشرق العربي، فإننا نشير عليه بإمعان النظر في ألقاب هيئة تحرير أكبر المجلات العلمية الصادرة هناك (مثل مجلة عالم الفكر، والمجلة العربية للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ومجلة الدارة، ومجلة الأحمدية، ومجلة الذخائر، ومجلة معهد المخطوطات العربية...إلخ)، وليمعن النظر كذلك في الألقاب العلمية لهيئة التدريس بالجامعات الإنكليزية، أو (موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين) التي تصدرها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ليرى كيف يتم التمييز بين الدكتور والأستاذ الدكتور. فالأمر لا يتعلق بأي غرور علمي كما يتوهم الناقد حينما ينصحنا بالتواضع العلمي.

وختاما وجب القول بأن الموضوعية هي الصفة التي ينبغي أن يتحلى بها كل ناقد منصف. فهي تلزم الناقد بالتروي في إصدار أحكامه لا بإطلاق الكلام على عواهنه، أو بأن يبخس مجهودات الناس، أو تجريحهم من دون سبب معقول ووجيه.

إنني أكرر مرة أخرى ما قلته في جملة «سقطت سهوا» من تعليقي السابق، ـ وأرجو أن لا تسقط هذه المرة ـ من كون الناقد قد قرأ ترجمتنا بـ «عين السخط التي تبدي المساويا». وكان من المفروض أن يقرأها، لا بعين الرضى، وإنما بميزان الموضوعية وبالتجرد عن «الهوى».

وكيف ما كان الحال، فما يحمد للسيد عبد القادر الإدريسي هو قراءته المتأنية للكتاب، وانتقاداته الدقيقة لمكامن الخلل فيه، ووقوفه عند بعض هناته وتصحيحها بما ينم عن سعة أفقه ونباهته، وغيرته على تراث زعيم الوحدة عبد الخالق الطريس ورواد الحركة الوطنية المغربية عموما. كما أشكره على إتاحته الفرصة لنا للرجوع إلى بعض كتب اللغة للتثبت، ولو في عز الصيف، فالأمر جاد لا يحتمل اللغو.

---

* باحث وكاتب مغربي